من ناحية اخرى وجهان للشيء نفسه » ، وبشكل بارز ، قدمت قيمة ان يكتشف الصغير « ان المفتاح يشبه الفأس » ٠

رواية « ام سعد »

شكلت الرواية قفزة في موقف غسان الادبي ٠ وظلت من حيث شكلها مثار جدل « ما بين متحمس شديد الحماس وبين معتقد بانها اجتهاد متواضع لا يرقي الى مستوى الرواية » (٢١) ٠ وغطى نقد الدكتورة رضوى عاشور كافة الجوانب الاساسية في شكل ومضمون هذه الرواية٠ واعتبرت الجانب التعليمي فيها « صفة من صفات الادب الاشتراكي » ، وارجعت تمجيد غسان لام سعد الى « جوهر ارتباطها بالارض والثورة » ، ولذا فهي رواية عن (بعث امه) ٠

ويرى الياس خوري ان ام سعد « تذكرنا كثيرا بام جوركي ، وبالبطل الواقعي الاشتراكي ، بالمثال الشعبي الذي يجب ان يحتذى » (٢٢) ٠ فهي تعرف أن « خيمة عن خيمة تفرق » في مقارنتها بين خيمة المخيم وخيمة معسكر الفدائيين ٠ الاولى حبس ، كما تقول رضوى عاشور، والثانية اختيار حر لطريق المستقبل ٠

ان الرواية الواقعية تكره الحب البدائي ، وتمقت التعبير الرومنطيقي والسريالي ، وترسم الحب الحقيقي المتفتح لكل رياح الحياة والعصر ٠ وهي في رفضها للغموض ، فانما ترفض لعبة الشكل ، ولا تنادي بالمباشرة الساذجة، والتبسيط الفج ٠ فموقف بليخانوف «قيمة العمل الفني في مضمونه فقط » ، قد هزمه مكسيم جوركي في حديثه مع الروائية الانجليزية مارغريت هاركتس ، عندما قال « كلما كانت اراء المؤلف اكثر خفاء كان هذا افضل للعمل الفني » ٠ وهي جملة قريبة نسبيا مما قاله الناقد التقدمي محمود امين العالم « الشكل ـ الصورة ـ تكاد تكون جوهر ما يجعل الادب ادبا والفن فنا » (٢٣) ٠

وام سعد رواية واقعية ، عبرت عن لحظة اقتراب غسان من الفكر الماركسي ، وبدء مغادرته للفكر القومي ٠ ان كدحها البروليتاري الرث ، يتجاوب مع واقعية العمل المتاح للنساء الاميات في اغلبية مخيمات اللاجئين ، وليس بالضرورة ان ينم هذا الاختيار عن اضطراب نظري وتشوش ايدولوجي ٠ وعفويتها ، لا تخفي وجهها الشعبي الجميل ، كما قالت يمنى العيد ، في « ممارسات في النقد الادبي » ٠

رواية عائد الى حيفا

مرة اخرى يضطرب مسار غسان ٠ يتقدم في الشكل ، فتصبح عائد الى حيفا متقدمة على ام سعد في الحركة الايقاعية والوحدة العضوية ٠.ولكن التناول الذهني للشخصيات والاحداث ، هو الذي جعل الدكتورة رضوى عاشور تعتبر الرواية « محدودة فنيا ، مكتوبة على عجل ، فيما يبدو » ٠ وهو الذي جعل الياس خوري يعتبر الابطال فيها « مجرد حالات » ٠ وعادت رضوي عاشور لتستخلص ان غسان قدم الشخصيات « كأدوات للحدث ، وكأنها شخصيات في قصة قصيرة ، فلا نراها في اكتمالها الانساني » ص ١٤٤٠

نقطة اخرى ، ارتد غسان عن الام الكادحة (ام سعد) الى الطبقة الوسطى (سعيد/عائد الى حيفا) ، تماما كما ارتد من الواقعية النقدية في رجال في الشمس الى تيار اللاوعي في ما تبقى لكم ، وهذا الاضطراب المتجدد ، ينم عن ازمة ايدولوجية اولا ، حاول غسان التعويض عنها ، بطرح مشكلات جديدة ، ولاول مرة ان تقديم الاسرائيلي خارج ميدان القتال